من تراب الطريق (٣٨٧)

« وكلهم آتيه(*) يوم القيامة فردا»

استحضر انتباهى آية فى القرآن الكريم تنذر المنكرين والكفار والمعاندين ، بقول الحق جل علاه : ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ..

ومن يقرأ القرآن المجيد ، يلاحظ كيف أن النذير القرآنى قد أتى فى كل مواضعه بالغ الحكمة شديد الوقع نافذ الحجة ، أينما يتابعه فى الكتاب المبين ، يلمس هذه الخصائص مجتمعة ، فالحق سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وفى سورة آل عمران : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦ـ١٩٨] ، وكما ترد البشارة والوعد ، يأتى الوعيد فى موضعه منذرا بالعذاب الأليم ، وربك سبحانه لا يظلم أحدًا ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ مثلها وهم لا يظلمون .. ومع غفرانه وتوبته سبحانه وتعالى على من يتوب إليه ، فإن الآيات المبينة تقرن شدة العقاب

(*) المال ١١/ ١/ ٢٠١٠

بغفران الذنب وقبول التوبة ، فيقول جلّ شأنه فى مستهل سورة غافر : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر:٣] .. ونرى فى آيات سورة مريم ـ بعد أن عددت صورا من عناد المنكرين أو ادعاءات المدعين ، وتطاول البعض وتمنيهم الأمانى أنهم سيرزقون فى الجنة أموالًا وولدًا ، وكفرهم بآيات الله ، واتخاذ بعضهم من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا ، وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله ، أو أنه سبحانه وتعالى قد اتخذ ولدا ، ترى الآيات لا تكتفى ببيان ما فى ذلك من منكر وفظاعة وبهتان ، وإنما جاء النذير فى آيتين من سورة مريم بالغ الدلالة فى تقريع المعاندين واستحضار انتباههم إلى ما يفوتهم ويغيب عن حسبانهم ، فتقول الآية (٩٣) من سورة مريم : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾.. فقد أحصاهم تبارك وتعالى وعدهم عدًّا ، ثم تقول الآية (٩٥) : ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾.. قمة الحجة والبلاغة والمزاوجة بين العبودية التى لا يعز عليها مخلوق إلاّ ويأتى إلى الرحمن ـ ولاحظ صفة الرحمة التى أوردتها الآية هنا ! ـ إلا ويأتى إليه عبدًا خاضعًا ذليلًا لا يملك شيئا مما كان يتباهى أو يفاخر به أو يومئ إليه أو يعاند فيه .. الكل بلا استثناء عباده ، لا يعز منهم أحد على حساب ربه الذى أحصاهم عددا وأحصى ما صدر عن كل منهم ، ومع ذلك تقرن الآية هذا الوعيد والنذير بصفة رحمته تباركت أسماؤه .. فى هذا اليوم لا ظهير لأحد لا نصير ، ولا عزوة ولا قبيلة ولا أحزاب ولا عصبية ، وإنما يأتى الجميع فرادى .. فردًا فردًا ..لا مال يعينه ويؤازره ، ولا نصير يؤيده

ويدعمه ، ولا ملاذ له فى عصابة أو قوة أو أسرة أو قبيلة أو قوم .. فالكل آت إلى الله تعالى يوم القيامة فردًا .. حسابه أمامه سبحانه وتعالى على ما قدمت يداه وسلك فى دنياه .. ففى القرآن المجيد : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣] .

شخصية المسئولية ملمح قرآنى بالغ الحكمة ، فالإنسان مسئول فى شريعته عما يفعل وعما يدع ، يثاب وينجو بعمله لا بوساطة ولا بشفاعة الكهان أو الأحبار والرهبان .. يأتى إلى ربه فردًا لا نصير له من مال أو جاه أو منصب أو عزوة أو قبيلة أو حزب ، مصيره معلق بسجله وفعله ، يأتى منسلخا من كل ما انتصر به أو تجبر أو اعتز أو اغتر فى دنياه .. طائره فى عنقه لا فى عنق سواه ، عبد فرد خاضع ذليل إلى ربه ، لم يخرج من الدنيا برصيد البنوك أو تلال الثروة أو سجلات المجد والفخار ، أو صفحات التجبر والطغيان ، أو أضغاث الأوهام .. لا يحمل إلاّ كتابه بيمينه أو بشماله ، فيما وصفه القرآن المجيد وصفا بليغا يحمل بيانه لمن يعتبر.. فيقول عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ١٨ـ٣٣] .